ماهية الإنسان

وصلتها بحريته ووظيفته الاجتماعية

من خلال رسائل النور

(دراسة تحليلية نقدية مقارنة)

أ.د. عمار جيدلΨ

كان الإنسان وسيبقى المشكلة الكبرى التي انشغل بها الفكر البشري منذ أمد بعيد، وقد رام رجاله تجاوز تلك المشكلة بالإعراض عنها حينا، وبالعقل ومنتجاته حينا آخر، ومن هذا القبيل سلّم أمره للفلسفة على تنوع مناهجها وغايات أساطينها، كما استجاب أحيانا أخرى إلى ما جاء به الأنبياء عليهم السلام ... وقد توخى كل أولئك الكشف عن ماهية الإنسان، ليتسنى في ضوئها معرفة حريته عند البعض، والقيام بالوظيفة الاجتماعية لدى البعض الآخر، فهل كان الشيخ ميالا إلى أحد الاتجاهين ؟ أم أنه اختار اتجاها ثالثا يتوافق مع الروح القرآنية التي ملكت عليه أنفاسه؟ وما هي هذه الصورة التي رسمها القرآن الكريم للصلة بين ماهية الإنسان وحريته ووظيفته الاجتماعية ؟ تقتضي الإجابة عن الإشكالية السابقة وضع الخطة التالية :

تمهيد : نتوخى من خلاله بيان أهمية بحث المشكلة في الفكر البشري

أولا: ماهية الإنسان

سنبيّن من خلاله مفهوم الإنسان من خلال رسائل النور، لنكتشف من خلالها موقفه من مختلف الآراء في مفهوم الإنسان وماهيته.

Ψ من مواليد سنة 1960 ولاية المسيلة في الجزائر . دكتوراه في العلوم الإسلامية واستاذ محاضر في العقيدة والفكر الإسلامي في جامعة الجزائر. ترأس العديد من الأقسام والمشاريع والوحدات العلمية . وعضو في عدد من المجلات العلمية المحكّمة.

ثانيا : صلة الماهية بالحرية

الهدف الأصلي من استقراء نصوصه المبيّنة للصلة بين الماهية والحرية الكشف عن نقده للتصورات المختلفة للمشكلة المعروضة (صلة الماهية بالحرية)

ثالثا: صلة الماهية بالوظيفة الاجتماعية

تعتبر الماهية من أهم محددات الفعل الاجتماعي، وبالتالي فهي ضامن رئيس للقيام بالوظيفة الاجتماعية عند رواد الاتجاهات الاجتماعية، كما يعد من أهم محرري الإنسان من الضغط الاجتماعي أو الالتزامات الاجتماعية عند رواد الاتجاهات اللبرالية، أما التصور القرآني فهو على خلاف ذلك، يجمع بين خيري الفريقين في إطار مرجعية وتصور نظري متميّز ، سنحاول الكشف عنه من خلال رسائل النور.

تمهيد

تعتبر مشكلة الصلة بين ماهية الإنسان وحريته من جهة وصلتهما بالوظيفة الاجتماعية للإنسان من أهم ما شغل الفكر البشري منذ أمد بعيد، إذ القول بأن الإنسان وجد هكذا دون ماهية، وما ماهيته إلا ما يصنعه هو لنفسه ، فتكون الحرية من جرّاء ذلك ما يريده الشخص نفسه، ما هي في حقيقة الأمر إلا نظرة كونية وفلسفية معيّنة، وفي إطار هذا الفكر، يتبادر إلينا السؤال الجوهري التالي: إذا تعارضت الحريات فلمن تكون الغلبة في آخر المطاف؟ هل تكون لفكرة مطلق الإنسان أم أنها تكون لشخص معيّن، فرض رأيه بأسلوب من أساليب القهر والتسلّط؟

ومن فرض رأيه كان له أن يحدد للناس – وفق قانون الغالب – الوظيفة الاجتماعية وفق ما حدد به حرياتهم، وهنا يتبادر إلى الأذهان التساؤل الآتي:

ما موقف النُورْسي من هذه المقولة؟ وما هي ماهية الإنسان في فكر النُورْسي؟ وما الصلة بيم الماهية والحرية عند هذا الرجل الفذ؟ وهل لهذا التحديد صلة بالوظيفة الاجتماعية؟

تلك هي التساؤلات المركزية التي تشغل الباحث ، و سيحاول الإجابة عنها، وفق الخطة التي رسمها في فرشة البحث.

المقدمة:

كنت قد انتهيت في بعض ما كتبت عن النُورْسي إلى أنه شخصية قرآنية إلى النخاع، فقد جعل من أولويات التغيير المنشود بيان منزلة القرآن الكريم والسنة النبوية في سلم المعارف الإنسانية فضلا عن الإسلامية، إذ باكتشافها يتمّ التمييز بين المنتج المعرفي الزمني

(والذي يجب أن يقرأ قراءة نقدية من قبل المتخصصين) والوحي الإلهي الذي جعله الخالق سبحانه وتعالى فوق الزمان والمكان، أي أنه يتعالى عن الخـبرة المعرفيـة الإسـلامية والإنسانية، و يسمح هذا الترتيب بتجاوز مجموعة من الأمراض النفسية والمعرفية، لعـل أهمها:

* إهمال البعد الوظيفي للدين الإسلامي بسبب هيمنة الخبرة المعرفية (الزمنية) علـى الوحي(فوق الزمن)، وقد كان ذلك سببا في بعث الخلافات المذهبية من مرقدها.

* إشاعة القراءة التبركية أو التاريخية للقرآن والسنة المطهّرة، فأبعدت التلاوة الهدائية الخاشعة لله تعالى، وعوّضت بتعاويذ تكرّر هنا وهناك دون أن يكون لها أدنى أثر علـى أفعال المسلم .

* أبعد القرآن والسنة المطهّرة من خلال هذه القراءة من مصاف المصـادر اليقينيـة للمعرفة الدينية (العقائد، والفقه، والأخلاق، ...) كما أبعدت أيضا في مجال نشأة الكون وخلق الإنسان و مصيره...[1]

وما دام الغرض من البحث وفق ما خطّه القائمون على المؤسسة هو الكشف عـن الإنسان في مؤلفات النُوْرْسي، و النُوْرْسي كما بيّنا رجل القرآن، فإننا ملزمـون مـن الناحية المنهجية ببيان أهمية القرآن بالنسبة للإنسان من خلال مؤلفات النُوْرْسي، فمـاذا يمثل القرآن بالنسبة للإنسان وفق ما ذكره النُوْرْسي؟

أهمية القرآن بالنسبة للإنسان:

يعتبر القرآن الكريم مصدرا معرفيا وتربويا ضروريا من وجهين، أولهمـا جانـب الموضوعات وثانيهما المناهج الموظّفة في بيان حقائقه.

يبيّن الأول أن القرآن مصدر اليقين في مسألة نشأة الإنسان الأول ووظيفته الكونيـة بالإضافة إلى معارف أخرى [2] ، كما يعتبر ملفتا لانتباه العقلاء إلى المنـاهج المعرفيـة الواجب اتباعها في تحصيل كثير من المعارف [3].

يقول النُوْرْسي بعد ذكر أمثلة: "فشاهد في ضوء هذه الأمثلة ثروة القـرآن الطائلـة وغناه الواسع في معرفة الله في ميدان العلم والحكمة ... وهنا نجد في القرآن الكريم آلافا من القرائن حتى أنه يهب لكل ذي مشرب قرآنا منه، ...".[4]

و ورد عنه أيضا "إن القرآن الكريم يلقن الحكمة ويربي الإنسان في حياته الشخصية والاجتماعية فضلا عن رجحان القرآن الكريم على سائر الكلام وسموه علـى الأقـوال قاطبة" [5]

و بتظافر هذين الجانبين يتحقق العديد من الأهداف المعرفية والتربوية:

* هداية البشرية إلى طريق السداد والرشاد، يبيّن ذلك ما يظهر في القرآن من صور أوفى وأرقى ما عرفت البشرية وعرف تاريخ الهدايات، فكانت في أبهى صور الإقناع شاملة لجميع مجالات الحياة. فقد "أبدع القرآن الكريم وأتى بالرائع المعجب في تصوير أدق فروع أركانه الخمسة وحافظ على جمال التناسب وكمال التوازن فيما بينها، بل حافظ على أبسط آدابها ومنتهى غاياتها وأعمق حكمها وأصغر فوائدها وثمراتها وأبهر دليل على ذلك هو كمال انتظام الشريعة النابعة من نصوص ذلك القرآن الجامع ومن إشارته ورموزه...[6]

* تعريف البشر بمعبود هم سبحانه وتعالى، وتحقيق الأجر بالتلاوة: من قرأ حرفا من كتاب الله له أجر[7]، فكان طلب الثواب من التلاوة طريقا للمعرفة والالتزام.

قال النُوْرْسي: "إن حكمة تكرار القرآن الكريم من"خلق السماوات والأرض"و"رب السماوات والأرض" إنما لأجل الإرشاد إلى هذه الحقيقة العظيمة المذكورة، وتلقين هذا البرهان الباهر للتوحيد ولأجل تعريفنا بخالقنا العظيم سبحانه"[8]

ولهذا حق لنا أن نقول بأن القرآن الكريم هو كتاب صلة الإنسان بالله والتي في كنفها تكون صلته بسائر أجزاء الكون، صلته بأخيه الإنسان، صلته بعالم الجماد،...[9]، فهو كما قال النُوْرْسي "كتاب قد نـزل لأجل الإنسان"[10]

أبعاد فكرة القرآن كتاب صلة الإنسان بالله:

ليست هذه الصلة قضية معرفية فحسب، بل هي بالإضافة إلى ذلك مسألة متعددة الأبعاد، ففيها الجانب الاجتماعي والتربوي والفكري والاقتصادي... تطفوا بضلالها على جميع ميادين الفعل الإنساني، لهذا ستجلب عددا لا حصر له من الآثار على الإنسان والكون، منها على سبيل المثال لا الحصر:

* تمكّن هذه الصلة لوحدة المسلمين اللغوية والدينية في كلياتها، وهما عاملان رئيسان لتيسير التفاهم ثم التضامن، فتعظم شوكتهم، وتعلوا كلمتهم وفق ما أراده خالقهم منهم

* كانت هذه الصلة عاملا مهما للمحافظة عليه وبقائه مصونا من التغيير والتبديل اللذين أصابا غيره من الكتب الإلهية، وهي من بين الطرق التي يحمي القرآن بها نفسه بنفسه وينفذ حكمه[11] وهي بمثابة حماية ذاتية.

* اقتضت حكمة الله أن يكون طريق طلب أجر تلاوة القرآن الكريم، سلما ضروريا للعروج إلى التدبر في القرآن الكريم والاهتداء بهديه طلبا للآخرة.[12]

ماهية الإنسان في فكر النُوْرْسي:

تتفق مؤلفات النُوْرْسي في عرض مسألة ماهية الإنسان وصلتها بحريته ووظيفته الاجتماعية، إذ تدور القضية بتفاصيلها حول فكرة مركزية تستهدف تحقيق **مقاصد إنسانية عليا**" على اختلاف مراتبها، ومكملاتها، وفق المصالح التي يفتقر إليها الوجود البشري"[13]، وإنزال المقاصد الإنسانية منزلة المحرّك للأداء الحضاري في تصور النُوْرْسي جعله يركّز على الجانب التربوي التذكيري في بيان المسألة وتبليغها ، فعرضت المسألة في أدبياته في قالب جواني وجداني تربوي ظاهر، بناه أساسا على بيان المؤاخذات التي يلام عليها الغافلون عن المسالك الإيمانية التي رسمتها وظيفة المسلم المتحرّك بما أملته ماهيته التي حددها خالقه، يؤكد الفكرة في جعله الإنسانية منتهى المطالب الدنيوية المنتظرة من الإيمان، حيث يقول:"حتى إن ما يطلق عليه"الإنسانية" التي هي قصيدة حكيمة منظومة تعلن إعلانا لطيفا جميع تجليات الأسماء الإلهية القدسية، وهي معجزة قدرة باهرة جامعة كالنواة لأجهزة شجرة دائمة باقية" [14].

و لتحقيق هذه المقاصد الإنسانية في الإنسان حدد له الخالق الماهية والوظيفة وزوّده باستعدادات فطرية ووسائل تكملية وطرق تذكيرية تيسر له تحقيق تلك الغايات السامية، ومن ثمّ كانت الغفلة عن تلك الماهية وما تزال وستبقى، –مع عدم النظر إلى ما وهب من استعدادات – سببا في ضياع المقاصد الإنسانية في الفعل البشري.

فالكفر مثلا يقذف الإنسانية من القمة السامية العالية التي جعلها عليها خالقها إلى أدرك الدركات هي أذلّ و أدنى من أي مخلوق ذليل فانه عاجز ضعيف فقير، بل يرديها إلى دركة أتفه الصور القبيحة الزائلة سريعا..[15] وهكذا تتحول الإنسانية من صورتها الحيّة – خلافة الأرض – التي تفوّقت بها على الأرض والسماوات إلى صورة ميّتة ومميتة.

من هذا المنطلق سعى النُوْرْسي في مجموع مؤلفاته نحو تحقيق هذا المقصد، ولورمت بيان ذلك من خلال المجموع لما جئت بشيء إضافي غير ما حواه بعض تلك المؤلفات من هذه الزاوية، لهذا اخترت معالجة الموضوع من خلال الجزء الأول من كليات رسائل النور"الكلمات".

وقبل سرد التفاصيل، لنا أن نتساءل من الناحية المنهجية، ما المراد بالماهية وما هي الوظيفة المناطة بصاحب هذه الماهية وما صلة كل ذلك بحرية الإنسان ووظيفته الاجتماعية.

أولا: ماهية الإنسان:

مصطلح الماهية في أدبيات النُورْسي قليل الورود، ويريد به في السياقات التي أوردها فيها – وخاصة في مقام الحديث عن الإنسان – حقيقة الشيء، لهذا فماهية الإنسان حقيقته، و تتجلى تلك الحقيقة في أن منحه الحق سبحانه وتعالى منزلة أكرم من منزلة الملائكة، رافعا إياه إلى مرتبة الخلافة[16]... وعرّفه بهذه الماهية فسماه خليفة، يشغل رتبة الخلافة في الأرض ويحمل مهمة الأمانة الكبرى[17].

و بيّن أن الحديث في هذا السياق عن مطلق الإنسان في أصل خلقه، قال تعالى: "ولقد كرّمنا بني آدم"، فهي ماهية لجميع أصل بني آدم عندما أعدّهم خالقهم لعمارة الأرض والسير فيها باسمه والعمل بأمره، لهذا فهي بمثابة منبه أساسي لما من شأنه أن يؤسس للتقارب العملي بين بني آدم ، بل ويدعوهم إلى المطالبة بالمساواة وتجسيدها العملي بالحجة حينا والتذكير في كثير من الأحيان، و قد رام بذلك التحقيق النظري والعملي للمساواة بما يأتي:

1- التنبيه إلى أصل المادة التي خلقوا منها ، فقد خلقهم البارئ المصوّر من مادة واحدة ، وما التعبير عن مختلف المواد التي خلقها منها إلا تعبيرا عن المراحل التي مر بها خلق الإنسان.

2- أصل بني الإنسان يرجع إلى أب واحد وأم واحدة ، وهو بمثابة التنبيه العملي إلى ضرورة تجاوز التكبّر والتعجرف بوصفها أمراضا تصيب الإنسان حين الغفلة عن الأخوة الإنسانية المحددة بالأبوة الواحدة.

3- نبّههم الخالق في القرآن الكريم إلى أنهم تناسلوا بطريقة واحدة:"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"، لهذا فسبب التكبر ليس إلا من قبيل الغفلة عن هذه الحقائق التي يريد الخالق تجسيدها وتركيزها في الفطر البشرية بأسلوب تذكيري.

4- مصريهم واحد، وما دام مصيركم واحدا وهو السير نحو الموت، فلما التكبر والأنانية والغرور، والتميّز عن سائر الناس ، إنها بسبب الغفلة عن الحقائق التي يريد القرآن ترسيخها في قلوب البشر وعقولهم.

بيّن أن الإنسان رفيع القيمة بالنسبة لسائر المخلوقات ، مكرّم نفيس غير ذليل في صورته وحركته، مفضّل بالمشاهدة ، مهيمن على سائر الكون بما منح من تدبير وتفكير، وقد زوّد بذلك بسبب ما أعد له من وظيفة نوعية متناغمة مع الماهية التي حددت له "إني جاعل في الأرض خليفة"، وظيفة يندرج فيها كل بني آدم، يشهد لهذا ما ورد عن ابن

مسعود وابن عباس في بيان الآية السابقة: "يحكمني في الحكم بين خلقي، وذلك هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين الخليقة"، ويعضده ما ورد في الأثر: "من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في كتاب الله ورسوله"، ويشهد له أيضا أن أمر الملائكة بالجود له، وسخّر له الكون وذلّله له، ومتّعه بكرامة ذاتية (جعله مهيئا للتعلم والتعليم والرقي الأخلاقي والفني)، ويؤكد مجموع ما سبق بيانه أن الإنسان متميّز عن سائر المخلوقات تميّزا ذاتيا (بما استودعه الله فيه) وتميّزا وظيفيا بما كلّفه الله به (عمارة الكون على وفق مراد الله) جعلا منه كائنا مسؤولا[18].

آثار فكرة الماهية

الأثر المعرفي	الأثر التربوي
1/اكتشاف المنـزلة الحقيقة	1/رفض الإذلال أوالذل
2/التحرر المعرفي من الأساطير	2/نشر التكريم
3/تشجيع الروح النقدية	3/رفض فكرة التمييز بين البشر
4/تدفع إلى التبليغ بعد الاقتناع	4/رفض الاستخفاف بالآخر
5/تشبع الفضول	5/الدفاع عن المستضعفين

6/التواضع مع الخلق لله عزّ و جلّ

ورغم قيمته الرفيعة التي عرّفنا القرآن بها" ولقد كرّمنا بني آدم"، فقد صوّره في شقه الثاني كائنا تافها بالنظر إلى مادة خلقه، وطريقة تخلّقه (التوالد المستمر)، فهو مخلوق من تراب، ثم من سلالة من ماء مهين، وإن طالت به العمر عاد إلى الضعف الذي كان فيه في بداية نشأته ومع ذلك يغلب عليه التكبّر والتعجرف، قال تعالى منبّها ومرشدا "فلينظر الإنسان مما خلق، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب"، ... إدراك هذه الحقيقة في سياق الإحاطة بوظيفته وماهيته يشعره بحاجة الناس جميعا لله تعالى من خلال حاجته هو نفسه.

و ما يحرّره من أسر الدنيا إلا التذكر المستمر لماهيته، وبها يرتفع الإنسان من كونه مخلوقا صغيرا وحيوانا ضعيفا وذا شعور عاجز إلى مقام رفيع ومرتبة عالية، بل إلى أرقى مقام عزيز مكرم على جميع المخلوقات"[19]

وما وقع البشر فيما وقعوا فيه من ويلات ومصائب إلا بسبب غفلة بعضهم و تكبّر وغفلة الآخر بقبول الاستخفاف، وما وقع في ذلك إلا حين نسيا الماهية أولا والنـزوع

إلى جزئه التافه على حساب جزئه العلوي، وكلتاهما جريمة لا تقل إحداهما شناعة عن الأخرى ، من حيث كونهما غفلة عن التكريم الإلهي المجسّد في الماهية المحددة بالخلافة.

الماهية والوجود:

يعرض النُوْرْسي المسألة في سياق الحديث عن حياة الكافر والملحد من جهة وحياة المسلم من جهة أخرى، يقول النُوْرْسي:"لأن الكفر جريمة كبرى، وجناية لا حدود لها، حيث أنه يهبط بقيمة الكائنات ودرجتها إلى هاوية العبث، يوهم عدم وجود الغاية من إيجادها... إنه تحقير بيّن للكائنات كلها وإنكار لما يشاهد ..."[20]

يظهر مما سلف أن الكافر لا يتصور ماهية للوجود سواء تعلّق الأمر بالآفاق أو بالأنفس، ولا شك أن هذا الموقف أملته الرغبة في الدنيا والغفلة عن الآخرة، وهكذا الحال بالنسبة لسائر الغافلين عن الله تعالى، يظنون أنهم هم الذين يصنعون ماهياتهم، وبالتالي تكون الماهية بعد الوجود، ولا شك أنّ هذا الرأي مخالف لبدائه العقول وما دل عليه صحيح المنقول الصريح .

يتجلى مما سلف أن الماهية قبل الوجود في الفكر الإسلامي الأصيل يشهد لهذا المعنى أن الله تعالى خاطب الملائكة بماهية الإنسان قبل تحقيق وجوده العملي "إني جاعل في الأرض خليفة"، لهذا فالماهية لم يحققها الإنسان بعد الوجود بل حددها له خالقه قبل إيجاده الميداني.

يشهد لهذا في أدبيات النُوْرْسي قوله مخاطبا نفسه: فيا نفسي (لغرض تربوي) الغافلة، إن كنت تريدين أن تفهمي شيئا من غاية حياتك، وماهية حياتك، و صورة حياتك، وسر حقيقة حياتك، وكمال سعادة حياتك... فانظري إلى مجمل "غايات حياتك" فإنها تسعة أمور، حدد من خلالها الربط بالخالق الذي حدد الماهية قبل الوجود المعبّر عنها بقوله"غايات حياتك"[21]

ومن هنا تتحدد العلاقة بين الماهية والحرية، فما هي الصلة بينهما؟

ثانيا:الصلة بين الماهية والحرية:

حدد الشيخ النُوْرْسي ماهية الإنسان في كونه خليفة وفق ما بيّنها الله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل، ومن ثمّ فالصلة بين الإنسان وحريّته جلية في إطار هذه الفكرة المركزية.

الإنسان في أدبيات النُوْرْسي من حيث صلته بماهيته، إما أن يكون مستحضرا لها وإما أن يكون غافلا عنها، هو في الأولى مجسّدا لحريته وفي الثانية غافلا عنها، مجسّدا لأنانيته وحبّه للتغلّب والأثرة، فكيف ذلك؟

يؤكد هذه المعاني في قوله:وما قيمة الدين عند الإنسان وكيف أنه "لولا الدين الحق لتحولت الدنيا إلى سجن رهيب" [22]، وهكذا فإن فقد الدين الذي معناه الذهول عن الماهية سيكون سببا في فقد الحرية، فيصبح مكبّلا بهواه سجينا في دنياه وإن كان في بحبوحة من النعيم، لأن من يجعل الحياة الفانية مبتغاه فسيكون في جهنم حقيقة ومعنى[23] من خلال وقوعه أسير النفس والهوى والشيطان .

لهذا فالإنسان الحر في فكر النُوْرْسي هو الإنسان الكامل المستحضر الدائم لماهيته، وبالتالي يسوق جميع اللطائف التي خلق مزوّدا بها إلى مقصوده الأساس وهو عبادة الله تعالى، فيسوق القلب كالقائد كل لطيفة منها ويوجهها نحو الحقيقة بطريق عبودية خاص بها. مصداقا لقول المصطفى ρ "ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ألا وهي القلب"[24]، وعند ذلك تسير الكثرة الكاثرة من اللطائف جنودا في ركب عظيم وفي ميدان واسع فسيح بقيادة السلطان(القلب)، كما هو لدى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم[25]، وبهذا يتحرر الإنسان من عدّة معوّقات:

1/المعوّق الأول:فقد الانسجام مع الكون والحياة.

2/المعوّق الثاني:فقد الانسجام بين الأعضاء.

3/المعوّق الثالث:فقد الانسجام بين بني آدم.

وتحقيقا لهذه المقاصد فإن إنسان القرآن يقصد الحق و يتحراه دوما، وفق ما يحمله من فطرة مكرّمة، وقد يعثر على باطل فيظنه حقا ويحافظ عليه، وقد يقع عليه الضلال من دون اختيار وهو ينقب عن الحقيقة، فيظنه حقا ويصدقه

ومادامت حقيقة الحياة هكذا (دار فتنة) فقد دعاه خالقه إلى ترك الغرور والأنانية، وطلب منه إعلان العجز و الضعف أمام عتبة باب الألوهية، إعلان بلسان الاستمداد، ولا يكون ذلك إلا بالإفصاح عن فقرك وحاجتك بلسان التضرع والدعاء ، وأظهر بأنك عبد للّه خالص قائلا"حسبنا الله ونعم الوكيل"، وبهذا ترتفع وترتقي في مدارج العلا [26]، طريق الأنبياء والشهداء الأتقياء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

وإياك أن تسلّم بقول الغافلين لسنا بشيء وما أهميتنا حتى يسخّر لنا هذا الكون من لدن الحكيم العليم عن قصد وعناية وحتى يطلب مني الشكر الكلي، إنك بحسب

وظيفتك ومنـــزلتك مشاهد فطن، ومتفرج ذكي على الكائنات العظيمة، وذلك اللسان الناطق البليغ باسم هذه الموجودات الحكيمة.[27]

و كثيرا ما يعرض مسألة الصلة بين الماهية والوجود في ثنايا الجواب عـــن التســـاؤل الآتي: ما أهمية هذا الإنسان الصغير وما قيمته حتى تنتهي هذه الدنيا العظيمة وتفتح دنيا أخرى لمحاسبته على أعماله؟ فكان جوابه:لأن هذا الإنسان، هو سيّد الموجودات رغم أنه صغير جدا، لما يملك من فطرة جامعة شاملة... فهو قائد الموجودات والداعي إلى سلطان ألوهية الله، والممثل للعبودية الكلية الشاملة ومظهرها، لذا فإن له أهمية عظمى[28] ولتيسير تجاوب الماهية مع الوظيفة ملّكه الله سبحانه وتعالى فطرة سامية.[29] وهكذا أصبح الإنسان مكرّما بالخلافة والأمانة، وارتقى بذلك إلى مرتبة القائد و الشاهد على المخلوقات، فهل يمكن أن يذهب إلى القبر لينام هادئا دون أن ينبّه ليسأل عن كل صغيرة وكـــبيرة مـــن أعماله، ودون أن يساق إلى المحشر ليحاكم في المحكمة الكبرى؟ كلا ثم كلاّ.

نعم إن الإنسان الذي أنيط به – من بين جميع المخلوقات – مهـــام عظيمـــة وزود باستعدادات فطرية كاملة، إن لم يعرف ربه (بالإيمان) بعد أن عرّف سبحانه نفسه إليـــه بمخلوقاته البديعة المنتظمة... وإن لم ينل محبته بالتقرب إليه ب"العبادة"بعد أن تحبب إليه سبحانه بنفسه وعرّفها إليه بما خلق له من الثمار المتنوعة الجميلة الدالـــة علـــى رحمتـــه الواسعة... وإن لم يقم بالتوقير والإجلال اللائقين به"بالشكر والحمد" بعـــد أن أظهـــر سبحانه محبته له ورحمته عليه بنعمه الكثيرة... نعم، إن لم يعرف هذا الإنسان ربه هكذا، فكيف يترك سدى دون جزاء، ودون أن يعدّ له ذو العزة والجلال دارا للعقاب؟[30]

ولما كانت ماهية الإنسان عالية وفطرته جامعة فهو محتاج بألف حاجة وحاجـــة إلى ألف اسم واسم من الأسماء الحسنى وإلى كثير جدا من مراتب كـــل اســـم، فالحاجـــة المضاعفة هي الشوق، والشوق المضاعف هو المحبة المضاعفة، والمحبة المضاعفة هي العشق، فحسب تكمّل روح الإنسان تنكشف مراتب المحبة وفق مراتب الأسماء ، محبـــة جميـــع الأسماء أيضا تتحول إلى محبة ذاته الجليلة تلك الأسماء عناوين وتجليات ذاته جلّ وعلا.[31]

يشبه الإنسان البذرة فلقد وهبت أجهزة معنوية من لدن القدرة الإلهية و أدرجت فيها خطة دقيقة ومهمة جدا من لدن القدر لتتمكن من العمل داخل التربـــة، ومـــن النمـــو والترعرع والانتقال من ذلك العالم المظلم بلسان الضيق إلى عالم الهواء الطليق والـــدنيا الفسيحة... فقد أودعت في ماهيته أجهزة مهمة من لدن القدرة الإلهية، ومنح بـــرامج دقيقة وثمينة من لدن القدر الإلهي، فإذا أخطأ هذا الإنسان التقدير والاختيار، وصـــرف أجهزته المعنوية تحت قرى الحياة الدنيا وفي عالم الأرض الضيق الحدود، إلى هوى النفس،

فسوف يتعفّن ويتفسّخ كتلك البذرة المتعفنة، لأجل لذة جزئية ضمن عمر قصـــير وفي مكان محصور وفي وضع متأزم مؤلم وستتحمل روحه المسكينة تبعات المسؤولية المعنوية فيرحل من الدنيا خائنا خاسرا.[32]

وجعله مخاطبا كليا له، ومرآة جامعة لأسمائه الحسنى..فهل يقبـــل العقـــل، يعطـــي للإنسان أجرة دنيوية زهيدة، زهادة شعرة واحدة، مع أنه أناط بـــه وبحواســـه مهامـــا ووظائف هي بعدد شعرات رأسه؟ فهل يمكن أن يقوم بمثل هذا العمل الذي لا معنى لـــه ولا مغزى خلافا لعدالته الحقة، ومنافاة لحكمته الحقيقية؟ سبحانه وتعالى عما يقولـــون علوا كبيرا.

"فهل يمكن أن يهب سبحانه للإنسان كل هذه الوظائف ثم لا يهـــب لـــه غاياتهـــا ونتائجها وثمارها وهي السعادة الأبدية؟"[33]، إنه ضرب من المحال الذي ليس بعده محال، لهذا يحدد النُوْرْسي في أكثر من موضع الغاية من وجود الإنسان والتي جعلت من حريـــة الإنسان لحمتها وسداها، بحث لا يتصور وجود تصرّف سوي من إنسان غير حر، بمعنى لا يمكن تصوّر إنسان مهمل أو غافل عن ماهيته يتصرّف تصرفا سويا، إذ مجمل غايات الحياة المحددة في تسعة أمور دالة بنفسها على الحرية التي يتمتع بها الإنسان الذي أراده الله سبحانه وتعالى أن يكون خليفته (صارفا نفسه لما جعل له "خليفة الله")، ويتجلى هـــذا الأمر فيما يأتي:

أولها: القيام بالشكر الكلي، ووزن النعم المدخرة في خزائن الرحمة الإلهيـــة بمـــوازين الحواس المغروزة في جسمك، ولا يمكن أن يقوم بذلك من غافلا عن ماهيته.

ثانيهما: فتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى بمفـــاتيح الأجهـــزة المودعـــة في فطرتك، ومعرفة الله جلّ وعلا بتلك الأسماء الحسنى، ومن تنازل عن حقيقته التي خلقـــه مولاه عليها لا يمكن أن كذلك.

ثالثها: إعلان ما ركّبت فيك الأسماء الحسنى من لطائف تجلياتها وبـــدائع صـــنعتها، وإظهار تلك اللطائف البديعة أمام أنظار المخلوقات بعلم وشعور، وبجوانب حياتك كافة في معرض الدنيا هذه، وفاقد الحرية لا يمكنه ذلك.

رابعها: إظهار عبوديتك أمام عظمة ربوبية خالقك، بلسان الحال والمقال، وما فعل ذلك غافل عن ماهيته.

خامسها: التجمل بمزايا اللطائف الإنسانية التي وهبتها لك تجليات الأسماء، التجمّل بيّن من صيغته أنه فعل إرادي والذي يمكن صدوره من فاقد لحريته غافل عن ماهيته.

سادسها: شهود مظاهر الحياة لذوي الحياة، شهود علم وبصيرة، وهو كسابقه من حيث صيته لا يمكن تصوّر صدوره من فاقد حريته، المكبّل بهواه وأنانيته.

سابعها: معرفة الصفات المطلقة للخالق الجليل، وشؤونه الحكيمة، يقصد في هذا المقام المعرفة الوظيفية التي تورّث خشية وخشوعا.

ثامنها: فهم الأقوال الصادرة من كل موجود في العالم وإدراك كلماته المعنوية فيما يخص وحدانية خالقه وربوبية مبدعه، ولا شك أنّ الغرض منه التحرر من معوّقات الحرية.

تاسعها: إدراك درجات القدرة الإلهية والثروة الربانية المطلقتين، بموازين العجز والضعف والفقر والحاجة المنطوية في نفسك[34] من أدرك ذلك بقلبه وعقله حرّره مولاه من الهوى والنفس الأمارة بالسوء فضلا عن إبليس وجنوده.

من هذا المنطلق كان الكفر عاملا رئيسا في محو الماهية الإنسانية وتعطيل آثارها المقصودة من قبل الشارع الحكيم، ويقرب من الكفر والإلحاد الأمراض النفسية، إذ بها يعطّل الإنسان المريض المقاصد الإنسانية من التشريع في جميع جوانبه، فيصبح الغرور قاعدة في التعامل، وتفتقد بذلك الآداب والعواطف الإنسانية التي جاء الإسلام من أجل ترسيخها من خلال بيان ماهية الإنسان التي تعتبر الزخم الذي تستمد حركة التغيير منه وقودها وقوتها الدافعة.

لهذا فإن الإنسان إذا آمن بالله وحده وأصبح عبدا له وحده، فاز بموقع مرموق فوق جميع المخلوقات، أما إذا استنكف من العبودية وتجاهلها فسوف يكون عبدا ذليلا أمام المخلوقات العاجزة، وإذا تباهى بقدرته وأنانيته، فسيكون أضعف من النملة والنحلة من جهة الخير والإيجاد، بل أضعف من الذبابة، وسيكون أثقل من الجبل وأضرّ من الطاعون من جهة الشر والتخريب... وتتمخّض عن ذلك ويلات لا حصر لها فتهان الإنسانية وتبتذل بل وقد تصبح في أدرك الدركات.[35]

وهكذا يتجلى أن الحرية في العبودية لله تعالى وهي المسلك الوحيد الذي يحرر الإنسان من معوّقات فعل الخير الفكري والاجتماعي والتربوي و... وبالتالي فالحرية في الاستحضار الدائم للماهية، وما فقدت الحرية إلا بسبب التعلّق بالدنيا والغفلة عن الماهية الحقيقة للإنسان، أنظر ذلك في كل ما يحيط بك من تصرفات اجتماعية وفكرية وتربوية وسياسية.

ثالثا: وظيفة الإنسان:

تبيّن ماهية الإنسان أنه موظّف وضيف على تعبير النُوْرْسي: إن الإنسان أرســـل إلى الدنيا ضيفا وموظفا ووهبت له استعدادات مهمة جدا، وعلى هذا أسندت له وظـــائف جليلة، وليكد ويسعى لتلك الغايات والوظائف العظيمة فقد رغّب ورهّب لإنجاز عمله، ولهذا فإن وظيفته (الخليفة) ليست الانهماك بالحياة الدنيا والاهتمام بها كالحيوانات، وإنما السعي والدأب لحياة خالدة.[36]

أسس الوظيفة:

بيّن مما سلف أن ماهية الإنسان هي "الخلافة " وتقتضي هذه المهمة القيام بوظيفـــة عبادة من استخلفه على الأرض، ومن مقتضياتها عمارة الأرض علـــى وفـــق مـــراد الله سبحانه وتعالى، وللقيام بهذه المهام وضعت مجموعة من الضـــوابط تحكمهـــا في جميـــع مراحلها.

1/النظرة التوحيدية للكون:

كلّف الله الإنسان بمهمة الاستخلاف في إطار نظرة كونية متكاملة شاملة بالنســـبة لموضوع التكليف وتنوّع المكلّفين ومستوياتهم، فهي تحكم صلة الإنسان بـــالله تعـــالى، وصلة الإنسان بأخيه الإنسان، وصلته بسائر المخلوقات، فمحور تلـــك النظـــرة مبـــدأ التوحيد أساس العقيدة الإسلامية ومحرّك جميع أبعادها المعرفية والسلوكية والاجتماعيـــة والفردية بل وباعثها حين الغفلة بالتذكير.

قال النُوْرْسي: "إن سر التساند والترابط، المستتر في الكائنات كلها، المنتشر فيهـــا.. وكذا روح التجاوب والتعاون من كل جانب.. يبيّن :

أنه ليست إلا قدرة محيطة بالعلم كله، تخلق الذرة وتضعها في موضـــعها المناســـب، فكل حرف وكل سطر من كتاب العالم، حيّ، تسوقه الحاجة، وتعرّف الواحد الآخـــر، فيلبي النداء أينما انطلق ، وبسر التوحيد تتجاوب الآفاق كلها، إذ توجّه القدرة كـــل حرف حي إلى كل جملة من جمل الكتاب وتبصّرها".[37]

وهكذا يظهر جليا أن التوحيد ينسحب على جميع ميادين الفعل الإنساني ومجالاتـــه المنظورة (عالم الشهادة) وغير المنظورة (عالم الغيب)، لهذا تتناول المسألة جوانب عدة، تتلخّص فيما يأتي:

أ/الجانب الأول: الجانب الإلهي من النظرة التوحيدية

يعتبر هذا الجانب ركن الزاوية في النظرة التوحيدية، بوصفه العامل الفعّال في جوانب الفعل الإنساني، فهو يعني توحيد الخالق في أفعاله وصفاته وذاته، فالله تعالى موصوف بكل صفات الكمال منزه عن جميع صفات النقصان، وهي المعرفة المركزية التي تنسحب على جميع ميادين الفعل البشري، وهي التي بمقدورها جعل فعله فعلا إنسانيا، "إذ الإنسان بمثل هذه العبادة والتفكّر يصبح إنسانا حقا ويظهر نفسه أنه في"أحسن تقويم" فيصير بيمن الإيمان وبركته لائقا للأمانة الكبرى وخليفة أمينا على الأرض"وهذا هو أساس مجمل الوظائف الإنسانية وسر العبودية.[38]

ويقول النُوْرْسي أيضا:"إن الإيمان يجعل الإنسان إنسانا حقا، بل يجعله سلطانا، لذا كانت وظيفته الأساس "الإيمان بالله تعالى والدعاء له"بينما الكفر يجعل الإنسان حيوانا مفترسا في غاية العجز"[39]

ب/الجانب الثاني:الجانب الكوني

العالم بجميع مكوناته فعل الله تعالى، لهذا فالعالم واحد من ناحية المبدأ ومادة المنشأ والمصير، فلم يوجد العالم من أصول متعددة ولا يعود إلى أصول متعددة، وجد من أصل واحد وحقيقة واحدة "**قُلْ الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**" [الرعد:16]، ويعود إلى مصير واحد "**أَلَا إِلَى الله تَصِيرُ الأُمُورُ**"[الشورى:53][40]

وبهذا يتحرر الإنسان في علاقته مع الكون من الخوف ويحثّه على استثمار الكون وفق مبدأ التسخير، ومن ثمّ الانتفاع به ماديا ومعنويا، باستثمار خيراته والتأمل فيه بغرض كشف أسراره، و تذكّر الله به لمن رام هذا المقصد ثم التذكير به لما تضمنّه من آيات وبراهين ربانية، أمعن النظر في ملامح الأرض وسيمائها، وفي مطرزات تعاريجها، ونقوش انحناءات سطحها، و التواءات جسمها، ولاحظ شكلها وألوانها الزاهية المتنوعة بتنوع تربتها، والتي تتسم بالحكمة والإبداع، وتثير الحيرة والإعجاب.. فدونك الأنهار والسواقي والبحار والجداول وسفوح الجبال، فإنها كلها قد هيئت ومهدت لتكون سكنا للمخلوقات ووسائط نقلهم من مكان إلى آخر"[41]

وقد استعمل النُوْرْسي من خلال النظرة التوحيدية للكون بعض أجزائه للاستدلال بها على خالقه، منها قوله:"إن الأرض التي هي بمثابة قلب الكون، قد أصبحت مشهرا لعجائب مصنوعات الله البديعة، ومحشرا لغرائب مخلوقاته الجميلة، وممرا لقافلة موجوداته الوفيرة، ومسجدا لعباده المتراصين صفوفا عليها، ونقرا لأداء عباداتهم.. هذه الأرض تظهر من شعاع التوحيد ما يملأ الكون نورا وضياء"[42]

ووردعنه أيضا: "إن التساند، والتعاون، والتجاوب، والتعانق، والتسخير، والانتظـــام الجاري في هذا الكون يشهد شهادة قاطعة أم مدبرا واحدا يديره، ومربيا واحدا يســـوق جميع الكون بما فيه"[43]

الجانب الثالث: الجانب البشري من النظرة التوحيدية

يحوي التوحيد في جانبه البشري عنصرين رئيسين:

أ/توحيد يؤصل فكرة وحدة بني البشر من حيث مادة خلقهـــم وعناصــــر بقـــائهم ووحدة مصيرهم، فالإنسان فعل من أفعال الله ، خلق جميع أفراده من مـــادة واحـــدة (تراب) جعل تخلّقهم على نسق واحد (التناسل)، ويصيرون إلى مصير واحد (الموت)، وهو ما يجعل الإنسان أو النوع الإنساني مصون الكرامة محفوظ الجانب في كل أحوالـــه بصرف النظر عن لون البشرة أو العرق أو الجنس أو الدين...، فالنظرة مبنية إلى قيمتـــه بالنظر إلى جوهر ماهيته.[44]

ب/توحيد في العبادة والتوجّه إلى الله سبحانه وتعالى، بوصفه الخالق الرازق، أمـــدّنا بعناصر الوجود والبقاء ويملك مصيرنا، ولهذا يجب التوجّه إليه وحده بالعبادة والطاعـــة، فيكون الله قبلة الروح ووجهة الحركة وغايتها، ومن ثم نبّذ كل مطاع أو جهة أو قبلة أو غاية أخرى.[45]

فالإنسان بعد مجيئه إلى هذا العالم له عبودية من ناحيتين، كلاهما يعبّر عـــن جـــانبي العبادة، فالناحية الأولى تشمل التصديق بالطاعة لسلطان الربوبية الظاهر في الكون والنظر إلى كماله سبحانه وتعالى وحسنه بإعجاب وتعظيم، ثم استنباط العبرة والدروس مـــن بدائع نقوش أسمائه الحسنى القدسية وإعلانها ونشرها وإشاعتها، والتفكّر بإعجاب عنـــد مطالعة أوراق الأرض والسماء وصحائف الموجودات التي هي بمثابة كتابات قلم القدرة، أما الناحية الثانية فهي مقام الحضور والخطاب الذي ينفذ من الأثر إلى المؤثر، فـــيرى أن صانعا جليلا يريد تعريف نفسه إليه بمعجزات صنعته، فيقابله هو بالإيمان والمعرفة.[46]

إن التوجّه في التوحيد العملي إلى الله تعالى يورث لدى العباد الثبـــات في صـــلتهم بالمعبود أولا، ثم في صلتهم بسائر المخلوقات ثانيا، نظرا لثبات المتوجّه إليه (كمال مطلق) وثبات القواعد العامة في التعامل مع الإنسان والكون والله سبحانه وتعـــالى، بخـــلاف التوجه إلى غير الله فإنه يورّث التغير المعرفي والنفسي والسلوكي للخاضع للتغير الحاصل على المخضوع له، إذ يرجع سبب الخضوع إما لقوة أو سلطان أو جاه أو مـــال أو... وهذه الأمور دول بين الناس فإما أن يفارقها المخضع لغيره بها أو تفارقهن وهـــو حـــين

يفارقها أو تفارقه تفرض تغيّرا على مستوى الخاضعين وفي ذلك شناعة ما بعدها شناعة، تؤثر سلبا على الخاضع بالتغير المستمر وفق ما يتطلّبه المخضع الجديد.

الوظيفة الاجتماعية:

تتركز الوظيفة الاجتماعية على استكشاف عناصر رئيسة تيسر الاستعداد الدائم للقيام بالوظيفة الحضارية المنتظرة والمنشودة ، يتجلى هذا الأمر في:

1/معرفة الضعف البشري :

إذ باكتشاف ضعفه وقلة حليته وأنانيته وأثرته لنفسه المنقطعة النظير (كانت ومـا زالت سببا في كثيرا من الصراعات)، فهذه الأمراض المعرفية والمعنوية كالأنانية ليس بمستطاعه التنصل منها لأنها تجري منه مجرى الدم، ولا سبيل لترشيدها بغير الإيمان، لأن الإيمان لا يلغيها بل يجعل لها بعدا ووظيفة اجتماعية ظاهرة، فيفعل الخير (فعل اجتماعي) بغرض فردي يحصّل بموجبه الثواب عند الله تعالى، مصداقا للحديث المتفق عليه "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

"إن المستند إلى أنانيته وغروره المتخذ الحياة الدنيا غاية آماله ، سوف يغرق في دائرة ضيّقة ويذهب سعيه إدراج الرياح، وستشهد عليه يوم الحشر جميع الأجهزة والجوارح واللطائف التي أودعت فيه شاكية ضده، ساخطة ثائرة عليه، أما إذا أدرك أنه ضيف عزيز، وتحرك ضمن دائرة مرضاة من استخلفه فسوف يكون نشاطه وعمله ضمن دائرة فسيحة رحبة جدا تمتد إلى الحياة الأبدية الخالدة، وسيعيش سالما آمنا مطمئنا، ويتنفس تنفس الصعداء ويستروح، و بإمكانه الصعود والرقي إلى أعلى عليين، وستشهد له في الآخرة ما منحه الله من الأجهزة والجوارح واللطائف"[47]

و قد رام النُوْرْسي توضيح الأمر حين الحديث عن قوله تعالى: "**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ**"(الأنعام: 32)، فقال بأن الحالة الروحية تبيّن من خمسة وجوه منها (محل الشاهد) إنه تعالى يدفع الإنسان ليستشعر ضعفه وعجزه غير المتناهيين، سواء بمدى ثقل الحياة أو تكاليف العيش أو أمور أخرى، فيولد لديه رغبة جادة في الخلود إلى الراحة وشوقا خالصا للمضي إلى ديار أخرى.[48]

2/جزئية الهدف وتفاهته:

نعلم أن حركة بناء الحضارة تستمد أساسا من قوة الدفع الداخلي لدى الساعي إلى البناء، فإن كانت قوة الدفع كلية وسامية كانت الحضارة مثلها، وإن كان الهدف تافها فإن جذوة بناء الحضارة تنطفئ بمجرد تحقيق الهدف أو جزء منه، لأن الهدف بمثابة الزخم

الذي يستمد منه المشروع حركيته وديمومته[49]، إن القيام بوظيفة العمارة وفق أمـــر الله تستمد قوتها من كلية الهدف وفاعليته في النفس الإنسانية (سنبيّنه لاحقا)، و تحرره مـــن الأهداف الجزئية التافهة المانعة من الانطلاق نحو الرحاب الواسع، لأنها تجعله غارقـــا في ذاته وأنانيته، لما يحمله من استعداد لا نهاية له للشر و الجحود، فهو قادر على تمـــرد و طغيان لا نهاية لهما[50]، من هذا المنطلق، "كان كل من يجعل الحياة الفانية فســيكون في جهنم حقيقة ومعنى، حتى لو كان يتقلب ظاهرا في بحبوحة النعيم، وكان كل متوجه نحو الحياة الباقية الساعي لها بجد وإخلاص فائزا بسعادة الدارين".[51]

3/مؤهلات القيام بالوظيفة الاجتماعية:

لا ينحصر التنبيه الإسلامي للإنسان حين القيام بمهام التكليف على جانب الضـــعف فقط، بل يشير أيضا إلى عناصر قابلة للنماء إذا استحضرها كانت مؤهلات قوية للقيـــام بأعباء المهمة، وفي ذلك يقول النُوْرْسي: "أودعت في ماهية الإنسان أجهزة مهمة من لدن القدرة الإلهية، ومنح برامج دقيقة وثمينة من لدن القدر الإلهي، وإذا ربى بذرة اســـتعداده بماء الإسلام، وغذّاها بضياء الإيمان تحت تراب العبودية موجها أجهزتها المعنويـــة نحـــو غاياتها الحقيقية بامتثال الأوامر القرآنية، فلا بد أن يستنشق عن أوراق وبراعم وأغصـــان تمتد فروعها وتتفتّح فروعها وتتفتّح أزاهيرها في عالم البرزخ وتولّد في عالم الآخـــرة وفي الجنة نعما وكمالات لا حد لها، فيصبح الإنسان بذرة قيمة حاوية على أجهزة جامعـــة لحقيقة دائمة وشجرة باقية، ويغدو آلة نفيسة ذات رونق وجمال، وثمرة مباركة لشـــجرة الكون".[52]

و تظهر مؤهلات الإنسان فيما يأتي:

ا/المؤهلات الروحية:

منح الله الإنسان مؤهلات روحية عالية يصلح بموجبها لاستقبال الوحي، لهذا يعتـــبر الجانب الروحي أساسيا في استقطاب والتقاط أوامر الله و نواهيه والتفاعل معها تفـــاعلا إيجابيا، يقيم أركانها في النفس البشرية أولا، والمحافظة عليها بـــالإخلاص والصـــدق في النفس والأمة ثانيا، وهو ما يساهم في ديمومة الفكرة وانتشارها، لأن المجتمع هو الوسط الحيوي للفعل البشري.

ب/المؤهلات البدنية:

زوّد الإنسان بقدرات بدنية تمكّنه من القيام بما طلب منه، فإمكاناته البدنية تيسّر له القيام بما كلّف به، بل هي منسجمة كل الانسجام مع تلك الوظائف ووفق قدرات كل شخص وقد ورد في الحديث"اعملوا فكل ميسر لما خلق له"، "فالإنسان وهب أجهزة معنوية ولطائف إنسانية والتي إذا قيست كل واحدة منها بما عند الحيوان لظهرت أنها أكثر انبساطا وأكثر مدى بمائة مرة، فمثلا: أين عين الإنسان التي تميّز جميع مراتب الجمال؟ وأين حاسته الذوقية التي تميّ. مختلف المطعومات بلذائذها الخاصة؟وأين عقله... وأين قلبه...... فقد خلق الإنسان في أحسن تقويم وفق ما يؤهله للقيام بوظيفة عبادة الله".[53]

إن الصلة بين المؤهلين تشابكية، وإن كانت الأسبقية للمؤهل الأول من حيث الفاعلية بوصفه قوة دفع البدن وتحريكه تحقيقا لمراد الله.

4/عناصر القوة في المعرفة بالماهية:

تتميّز ماهية الإنسان بعناصر قوة تجعلها تمتد أفقيا وعموديا عقليا وجوانيا، تنموا نموا سننيا (عاديا)، ولا تفقد (مؤقتا) موقعا محررا في الأنفس والآفاق إلا إذا حيل دون بقائها بوسائل غير موضوعية وغير أخلاقية وبالتالي غير مشروعة وفق التصور البشري، كالتشويه والكذب والدجل بأساليبه المتنوعة.[54]

وتتلخّص عناصر قوتها في جوانب عدّة تستند جميعها إلى الحق في الحياة الاجتماعية بدلا من القوة، وتجعل رضى الله ونيل الفضائل هو الغاية والهدف بدل المنفعة، والتعاون أساسا للحياة بدل الصراع، وجعل من غاياتها الحد من تجاوز النفس الأمارة بالسوء ودفع الروح نحو معالي الأمور و تطمين مشاعرها السامية لسوق الإنسان نحو الكمال والمثل العليا لجعل الإنسان إنسانا حقا وصدقا[55]، وهو ما يجعلها ضامنة لعناصر وجودها في النفس البشرية وديمومتها فضلا عن انتشارها.

أ/جانب الوجود:

تحمل ماهية الإنسان في فكر النُوْرْسي قوة ذاتية تمكّنها من النفس البشرية وتشبع مطالبها الفطرية النفسية منها والعقلية والاجتماعية، بمعنى أنها تستجيب لأساسيات مركوزة في النفس أصالة، لهذا أعتبر الوحي بمثابة مذكر بما هو كائن فيها إما بطريق الوعظ والإرشاد ومخاطبة الوجدان أو بالإقناع العقلي.

ب/جانب البقاء:

إن رسالة المسلم تتمتع بحجج عقلية ونفسية واجتماعية، تجعل استقرارها في الـــنفس ممكنا بل ومؤكدا بحجج النقل والعقل، لأن رسالة المسلم تبلغ بالإقنـــاع "**قـــل هـــاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**" (البقرة: 111)، وتتوخى تلك الطريقة في المحاجة وهو ما يدفع المقتنعين بها إلى البحث الاستدلالي المستمر.

ج/جانب الانتشار:

إن فكرة قامت واستمرت بالحجة العقلية المؤيدة للحقائق الواقعية، لا يمكن أن يمنـــع انتشارها الجهل والقهر... لأنها تحمل قوة ذاتية في الانتشار، وأكبر شاهد على ما ذهبنا إليه انتشار الإسلام بجهود العلماء مثل انتشاره بجهود غيرهم من التجار والعامة...

5/التركيب العقائدي للماهية و غائية المسير:

غاية الغايات في ماهية الإنسان هي عبادة الله تعالى، بمعنى العمل على تحقيق مراده من خلال السعي إلى مرضاته، وهو هدف دافع نحو البذل المستمر، إذ السير نحوه باســـتمرار يكسب صاحبه أفقا جديدة وامتدادات غير منظورة، وزادت جذوته اتقـــادا وحركتـــه نشاطا وإبداعا، لأن السير في طريق تحقيق الهدف المرسوم يشعر الإنسان بتقصيره دوما، فكلما خطا خطوة ازداد اندفاعا، لا لشيء سوى أن هذا الهدف بعيد المنال مع كمـــال الرضا.[56]

إن جذوة ماهية الإنسان في أدبيات النُوْرْسي لا تنطفئ لأنها حية متقدة باســـتمرار، لهذا فهو في مجاهدات دائمة مع نفسه (الجهاد الأكبر) ومع المفسدين والواقع الفاسد، وإن كملت المجاهدة في شق (وهو محال)، فتحت له آفاق جديدة للبذل المســـتمر، بـــل إن المطالبة بالتغير وفق ما تقتضيه ماهية الإنسان تتطلّب مراقبة دائمة لا يمكن أن يفتر عنـــها الإنسان في لحظة من اللحظات، لأنه ركّب نفسيا على النـــزوع إلى الدعة والراحـــة واستثقال الطاعة والميل إلى المعاصي، وهو ما جعل القرآن الكريم يركّز على التذكير أكثر من تركيزه على الاستدلال.

إن جعل طاعة الله تعالى هدفا للمسيرة الإنسانية وغاية نهائية للتحـــرّك الحضـــاري الصالح يمنح ماهية الإسلام تركيبا عقديا، يمد حركة بناء الحضارة بوقود لا ينفد، لأنـــه هدف كلي ينسحب على جميع تصرفات البشر (فكرية، واجتماعية، وتربويـــة، و...) هدف متميّز بوظيفته الإنسانية الظاهرة، وظيفة تجعل الأهداف المرحلية منضـــبطة بهـــا

وسائرة في فلكها، إذ يعد تغليب الأهداف الجزئية على الأهداف الكلية موقعا في الظلم والقهر والاستبداد، فمن جعل غايته الفرعية كلية كالاستحواذ على السلطان أو المال أو الجاه أو... فقد البعد الإنساني في تصرفاته فيقع في المحذور والمحظور من ظلم و قهر و... أما إذا جعل الأهداف الجزئية مصبغة بالهدف الكلي المحدد بالماهية فإنه سيتمكن من جني الثمار الاجتماعية والإنسانية المرجوة منها، لأننا وفق هذا التصور نرفع الحضارة إلى مستوى القداسة.[57]

5/التركيب الأخلاقي لماهية الإنسان:

بناء العدالة الاجتماعية وتحمل مشاق البناء الصالح بحاجة إلى دوافع تنبع من الوجدان بوصفه وعاء الشعور والإحساس بالمسؤولية، تواجه هذه الدوافع عقبة كأداء تحول دون نموها بل قد تهددها بالزوال، لهذا قلما يوفق الإنسان في تجاوزها، ولعل أهم تلك المعوقات الانشداد إلى الدنيا وزينتها والتي سماها الرسول ρ "الوهن حب الدنيا وكراهية الموت.[58]

يجمد الانشداد إلى الدنيا الإنسان ويكبحه عن المساهمة في بناء الحضارة، لأن البناء الحضاري مطلب كبير يقتضي بذل أنواع كثيرة من التضحيات التي تتلبّس بالجهد العقلي حينا وبالجهد العضلي حينا آخر والمالي حينا ثالثا...

ونظرا لخطورة الارتباط بالدنيا والانشداد إليها نبّه القرآن الكريم والسنن المطهّرة إلى خطورتها، قال تعالى: **"يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللّهِ"** [المنافقون:9] **"الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا"** [الكهف:46]، وورد في السنة"من كانت الآخرة همّه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة ومن كانت الدنيا همّه جعل الله فقره بين عينيه وفرّق عليه شمله و لم يأته من الدنيا إلا ما قدّر له".[59]

ولكن هل يمكن أن يطلّق الإنسان الدنيا وفيها معاشه؟

ليس المطلوب تطليقها خاصة وهي مسخّرة له بأمر خالقها، بل الغرض هو انتزاع التعلّق بها والانشداد إليها في حياته، لهذا أمر الشارع بالاستثمار الراشد وحرّم الانشداد إليها، لأنه في الحال هذه جعل الدنيا هدفا كليا تهون أمامه جميع المحرّمات فيقع الهرج والمرج ، فتتحول الدنيا إلى لهو ولعب وفساد وإفساد.

إن رفض الانشداد معناه إنزال الدنيا منزلة الطريق المفضي إلى الآخرة، وهي بمثابة ورقة امتحان إما أن يدخل بها صاحبها الجنة أو النار.

وهكذا كانت الدنيا بأهدافها الجزئية وسيلة لتحقيق غاية عظمى بأهداف اجتماعية وإنسانية، بمعنى أن رفض الانشداد إلى الدنيا ليس مطلوبا في ذاته بل هو من أهم مهام الوظيفة الاجتماعية، يكون خيرها مدرورا من الحق على الخلق ومن الخلق على الخلق بأمر الله تعالى، وبهذا يتضح أن ماهية الإنسان في القرآن الكريم ووفق ما وضّحه النُورْسي سبيل الحرية وتذكير الإنسان بوظيفته التي من أهم أبعادها تحقيق البعد الإنساني في التصرفات من بعث بعدها الاجتماعي.

6/القيام بالوظيفة ومعوّقاته:

يترتب عنها عدّة فوائد منها[60]

1/ القيام بهذه الوظيفة دواء لمشكل الفناء ومعالجته بالبقاء الذي تكرّم به الله (السلطان)، والذي يجد تكرم صرف من قبل الخالق الرازق، ويتجلى هذا الربح فيما يأتي:

أ /بيع الأمانة إلى مالكها الحقيقي، و في هذا البيع خمس درجات من الربح في صفقة واحدة ، يعود ربحها على البائع تكرما من المالك الأصلي.

الربح الأول:

المال الفاني يجد البقاء، لأن العمر الزائل الذي يوهب للحي الباقي، ويبذل في سبيله سبحانه، ينقلب عمرا أبديا باقيا، عندئذ تثمر دقائق العمر ثمارا يانعة وأزاهير سعادة وضاءة في عالم البقاء مثلما تفنى ظاهرا وتنشق عنها الأزهار والسنابل.

الربح الثاني:

الثمن الجنة أنظر كرم الله عليك يخلق ويمدّك بعناصر الوجود والبقاء فإذا صرفتها وفق مراده الذي فيه صلاحك وصلاح بني الإنسان بل الكون كلّه أكرمه بالفلاح يوم القيامة.

الربح الثالث:

يرتفع ثمن كل عضو وحاسة ويعلو من الواحدة إلى الألف ، وفق ما تبذله من جهد يكون الخير فيه مجعولا للخلق من الحق بما يتكرّم به الخلق على بعضهم بعضا وفق أمر الله تعالى وتوجيهاته.

الربح الرابع:

استعمال الأعضاء في أصل ما جعلت لها، وفي ذلك تزكيتها وتثمينها، فقد جعلت للطاعة وطاعاتها متنوعة تنوّع الأعضاء نفسها، وبهذا تتعدد الطاعات وتتعدد المنافع وآثارها في الكون والحياة

*** معوقات الوظيفة[61]**

أ/**الأنانية**:

الإنسان الذي يعتمد على أنانيته وغروره ويقع في شراك ظلمات الغفلة ويبتلى بأغلال الضلالة القاتلة، وقد النُورْسي التذكير بهذا الأمر في كثير مكن المواضع والمواضيع.

ب/الكفر:

بينما الكفر يجعل الإنسان حيوانا مفترسا في غاية العجز، لما فيه من تكريس للأنانية والغفلة والبعد عن المحتوى الإنساني للعلاقات بين البشر.

ج/الغفلة عن القيام بالوظيفة:

تعريض عدم بيعها لله تعالى فتستعمل في سبيل الهوى والنفس، فتتحول إلى أعضاء مشؤومة مزعجة عاجزة، فيتحمّل صاحبها آلام الماضي الحزينة وأهوال المستقبل المخيفة، فينحدر عندئذ إلى درك آلة ضارة مشؤومة[62]، فضلا عن خسرانه خمس خسارات أخرى[63] :

الخسارة الأولى:

إن ما تحبه من مال وأولاد، وما تعشقه من هوى النفس وما تعجب به من حياة وشباب، سيضيع كله ويزول، مخلفا آثامه وآلامه مثقلة بها ظهرك

الخسارة الثانية:

ستنال عقاب من يخون الأمانة، لأنك باستعمالك أثمن الآلات والأعضاء في أخس الأعمال قد ظلمت نفسك

الخسارة الثالثة:

قد افتريت وجنيت على الحكمة الإلهية، إذ أسقطت جميع تلك الأجهزة الإنسانية الراقية إلى دركات الأنعام بل أضل

الخسارة الرابعة:

ستدعو بالويل والثبور دائما، وستئن من صدمة الفراق والزوال ووطأة تكاليف الحياة التي أرهقت الحياة بها كاهلك الضعيف مه أن فقرك قائم وعجزك دائم

الخسارة الخامسة:

إن هدايا الرحمن الجميلة – كالعقل والقلب والعين وما شابهها – ما وهبت لك إلا لتهيّئك لفتح أبواب السعادة الأبدية، فما أعظمها خسارة أن تتحول تلك الهدايا إلى صورة مؤلمة تفتح لك أبواب جهنم.

الخاتمة:

يستشف مما سلف أن لماهية الإنسان صلة وثيقة بحريته في فكر النُوْرْسي، فمن اكتشفها وعمل على تجسيدها حرّره خالقه من مجموعة من المعوّقات والسجون لعل أهمها: الأنانية، والغفلة فضلا عن الكفر وما ينجر عنها جميعا من آثار وخيمة على الإنسان والوسط الذي حوله.

وبيّن أيضا أن لهذه الحرية صلة وثيقة بالوظيفة الاجتماعية المنتظرة من الإنسان في إطار ماهيته، ولكل هذا أثرا محمودا على الأداء الاجتماعي والفكري لمن رام مرضاة ربّه باستحضاره الدائم لتلك الماهية في كنف الحضور الروحي المستمر مع خالقه جلّ وعلا.

الهوامش:

1 أنظر إثبات الحقائق الإيمانية عند النُورْسي – المنهج والتطبيق/عمار جيدل، دراسة منشورة بمجلة الصراط العدد االثاني73–74
2 قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن/نديم الجسر 242، 244، 286
3 المعجزة الكبرى/ أبو زهرة357
4 الكلمات 151
5 الكلمات 142
6 المرجع السابق141
7 أنظر بحثنا رسالة الإنسان في الإسلام 3
8 الكلمات178
9 العبادة في الإسلام/القرضاوي49–52
10 الكلمات 292
11 م/س878
12 رسالة الإنسان في الإسلام/جيدل عمار3
13 من فلسفة أصول سياسة التشريع الدولي الكفيلة بإقامة التكافل الاجتماعي في الإسلام (5)/فتحي الدريني (بحوث خاصة بأقسام الدراسات العليا في الجامعة الأردنية.
14 الكلمات/النورْسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي 361
15 المرجع الاسبق361
16 المرجع السابق 94، 64
17 المرجع السابق81
18 رسالة الإنسان في الإسلام/جيدل عمار
19 الكلمات698

20 الكلمات 64
21 الكلمات 138
22 الكلمات 31
23 الكلمات 37
24 أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان، وهو جزء من حديث نصه:"الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما المشبّهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبّهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإنّ لكل ملك حنى ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه..."
25 المرجع السابق582
26 المرجع السابق 370
27 المرجع نفسه
28 المرجع السابق63
29 م/س81
30 م/س 67
31 م س768
32 م س362-363
33 م س94
34 م س138
35 الكلمات 360
36 /الكلمات371، 300
37 الكلمات841
38 أنظر المرجع السابق 373، 372
39 السابق354
40 نظام الإسلام العقائدي في العصر الحديث/محمد المبارك 25-30، النظرة التوحيدية للعالم /مرتضى مطهري29-30
41 الكلمات 811
42 المرجع السابق812
43 المرجع نفسه 338
44 رسالة الإنسان في الإسلام/عمار جيدل 10، الكلمات 81-83
45 المراجع نفسها
46 الكلمات 372
47 الكلمات 365
48 المرجع السابق 224
49 الإسلام يقود الحياة/باقر الصدر، وأنظر نظام الإسلام العقائدي29-31
50 الكلمات207
51 الكلمات 37
52 الكلمات 362-363
53 الكلمات396-397
54 أنظر حقائق الإسلام وأباطيل خصومه/العقاد113، خلافة الإنسان/النجار49، نظام الإسلام العقيدة والعبادة/المبارك27، 56

وقولنا بهذه الفكرة ليس على إطلاقه وبالتالي لسنا من المائلين كل الميل للتحليل التآمري للتاريخ ولسنا من المائلين عنه كل الميل.

55 الكلمات 472-473بتصرف

56 الإسلام يقود الحياة، الكتاب طافح بهذه المعاني

57 دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن/مالك بن نبي 30-40

58 الصدر مصدر سابق، وله أيضا موجز في أصول الدين135، أخرج الحديث أبو داود في سننه(الملاحم) بلفظ:" يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ قال بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولنـزعن الله من صدور عدوّكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن فقال قائل يا رسول وما الوهن قال حبّ الدنيا وكراهية الموت"

59 أخرجه الترمذي في سننه(صفة القيامة والرقائق والورع)

60 الكلمات351، 354

61 الكلمات351، 354

62 الكلمات23

63 الكلمات 25